

المحاضرة الثانية

مفهوم الرأي العام في العلوم الاجتماعية

مع تطور دراسة الرأي العام نحو الطابع التجريبي، أصبحت أكثر تخصصًا، حيث طورت فروع العلوم الاجتماعية المختلفة عدسات مفاهيمية وأجندات بحثية مميزة. ورغم التداخل بين هذه الفروع، فإن تعريفات الرأي العام في العلوم السياسية وعلم الاجتماع وعلم النفس ودراسات الاتصال تعكس الاهتمامات النظرية الأساسية لكل حقل.

1- العلوم السياسية: يرى علماء السياسة أن الرأي العام يُفهم أساسًا في علاقته بالدولة وعمليات الحكم الديمقراطي. يتركز الاهتمام على الأهمية السياسية للرأي العام، أي دوره في الانتخابات، وتأثيره في السياسات العامة، ووظيفته كمصدر للشرعية للمؤسسات السياسية. تعريف (V.O. Key (1961 الذي يؤكد أن الرأي العام يشمل الآراء التي ترى الحكومات أنه من "الحكمة الاستماع إليها" يعبر بدقة عن هذا التركيز على دينامية القوة بين المواطنين والدولة. تركز أبحاث العلوم السياسية حول الرأي العام غالبًا على سلوك التصويت، والانتماء الحزبي، ومدى توافق نتائج السياسات مع تفضيلات الأغلبية (Freeland, 2015, p. 562). كما يتناول هذا الحقل الجدل المستمر حول كفاءة المواطنين، بين نتائج أعمال متشائمة مثل *The American Voter* وتقييمات أكثر تفاؤلًا لما يُعرف بـ "الجمهور العاقل". (Page & Shapiro, 1992)

علم الاجتماع: يقدم علم الاجتماع منظورًا مختلفًا جذريًا، فهو لا يرى الرأي العام كمحصلة لمواقف الأفراد، بل كظاهرة اجتماعية جماعية. يهتم علماء الاجتماع بكيفية تشكّل الرأي العام اجتماعيًا، وكيف تؤثر فيه البنى الاجتماعية مثل الطبقة والعرق، وكيف يعمل كأداة للضبط الاجتماعي. ينبع النقد السوسيولوجي لاستطلاعات الرأي، كما عبّر عنه (Blumer (1948 و (Bourdieu (1979، من هذا المنظور. إذ يجادلان بأن الرأي العام "الحقيقي" ينشأ من تفاعل الجماعات والنقاش العام، وأن استطلاعات الرأي تخلق إجماعًا مصطنعًا من خلال معاملة الأفراد كوحدات معزولة (Manza & Brooks, 2012, p. 91). بالنسبة لعلماء الاجتماع، فهم الرأي العام يعني فهم العمليات الاجتماعية التي يُبنى من خلالها ويُتحدى ويُستخدم في الصراع من أجل القوة الاجتماعية والسياسية. ويأسف Jeff Manza و (Clem Brooks (2012 لتراجع هذا المنظور، معتبرين ذلك خسارة كبيرة لتفاعل علم الاجتماع مع السياسة.

2- علم النفس (وعلم النفس الاجتماعي): يُعيد علم النفس التركيز إلى الفرد، إذ يُعرّف الرأي العام من حيث المواقف والمعتقدات والقيم والعمليات الإدراكية الكامنة وراءه. يبحث علماء النفس الاجتماعي في الأسس الدقيقة لتكوّن الرأي وتغيّره. ويسألون كيف يعالج الأفراد المعلومات، وكيف يشكّلون مواقف تجاه القضايا السياسية، وما الذي يجعل هذه المواقف قوية وثابتة أو ضعيفة وقابلة للتغيير (Freeland, 2015, p. 564). تُعد مفاهيم مثل التنافر المعرفي، والاختصارات الذهنية، والتفكير التحفيزي، وقوة الاتجاهات عناصر مركزية في هذا النهج. ويُعد تركيز مدرسة ميشيغان على الانتماء الحزبي كارتباط نفسي مثلاً كلاسيكياً على هذا المنظور (Manza & Brooks, 2012, p. 90). بالنسبة لعلماء النفس، يوجد الرأي العام في نهاية المطاف داخل عقول الأفراد، وفهمه يتطلب التعمق في بنية العقل الإنساني.

3- دراسات الاتصال: يُعتبر مجال دراسات الاتصال متعدد التخصصات بطبيعته، لكن مساهمته المميزة تكمن في تركيزه على الرأي العام كنتاج لعمليات الاتصال. يعرف باحثو الاتصال الرأي العام على أنه شيء يتشكل ويتأثر ويُعبّر عنه من خلال تدفق المعلومات، سواء عبر وسائل الإعلام الجماهيرية أو الشبكات الشخصية.

تصوغ مقولة (Bernard Berelson (1948 هذا التركيز بدقة: "بعض أنواع الاتصال حول بعض القضايا، تُعرض على بعض أنواع الناس في بعض الظروف، تُنتج بعض أنواع التأثيرات (p. 204)". النظريات الأساسية في هذا المجال، مثل التدفق على مرحلتين، وتحديد الأجندة، والتهيئة الذهنية، والإطار التفسيري، تمثل جميعها محاولات لنمذجة كيفية تأثير الاتصال في ما يفكر الناس فيه، وفي طريقة تفكيرهم نحوه (Moy & Bosch, 2013, pp. 293-297). يرى باحثو الاتصال أن الرأي العام لا يمكن فصله عن البيئة الاتصالية التي يُولد فيها ويتعرّج داخلها.

هذه المنظورات التخصصية لا تتعارض بالضرورة؛ بل إن أكثر الأبحاث المعاصرة ثراءً تنشأ في تقاطعها. ومع ذلك، فإن إدراك نقاط انطلاقها المميزة واهتماماتها الجوهرية أمر ضروري لفهم المشهد المعقد والمتعدد الأبعاد لدراسات الرأي العام.

2- تصنيفات الرأي العام وأنواعه:

مع تطور دراسة الرأي العام نحو الطابع التجريبي، أصبحت أكثر تخصصاً. طورت فروع العلوم الاجتماعية المختلفة عدسات مفاهيمية مميزة، ومعها طرائق متنوعة لتصنيف الرأي العام. وإدراكاً بأن "الجمهور" ليس كياناً موحدًا، قام الباحثون بتطوير تصنيفات تحليلية لتفكيك أشكاله وتعبيراته المختلفة. هذه التصنيفات ليست مجرد تمرين أكاديمي، بل أدوات أساسية لفهم الطرق المتعددة التي

يعمل بها الرأي العام ويمارس من خلالها تأثيره. يُعد التمييز بين الرأي العام الجماهيري والرأي العام النخبوي من أهم التقسيمات الأساسية. هذا التقابل يعكس التوتر التاريخي بين النظريات الديمقراطية والنخبوية في الحكم.

- **الرأي العام الجماهيري** يمثل مجموع المواقف الفردية لدى السكان البالغين، أي مبدأ "شخص واحد، صوت واحد" الذي تجسده استطلاعات الرأي العلمية. هذا المفهوم هو الأكثر شيوعًا في الخطاب العام وفي جزء كبير من الدراسات السياسية، إذ يجسد المبدأ الديمقراطي القائل بأن جميع الآراء تستحق المعاملة المتساوية (LibreTexts, n.d., 7.1). لكن النقاد يرون أن الرأي الجماهيري غالبًا ما يكون غير مطلع، متقلبًا، ويفتقر إلى الاتساق الداخلي الذي يجعله مرجعًا موثوقًا لصنع السياسات (Converse, 1964, p. 245).

- **الرأي العام النخبوي**: يشير إلى آراء طبقة صغيرة لكنها أكثر تأثيرًا في المجتمع، تضم صنّاع القرار، والصحفيين، وقادة جماعات المصالح، وغيرهم من "الجماهير المنتبهة" المطلعين والمنخرطين في الشأن السياسي (LibreTexts, n.d., 7.1). يرى مؤيدو هذا المنظور، على خطى Walter Lippmann، أن تعقيد الحكم الحديث يقتضي أن تُمنح آراء النخب الواعية وزنًا أكبر من المشاعر العابرة للجماهير (Freeland, 2015, p. 562). ومن منظور سوسيولوجي، يُنظر إلى الرأي النخبوي باعتباره رأيًا "مفصّلًا" أو "مفعّلًا" يصدر عن "مواطنين منخرطين، واعين، ومنظمين" يشاركون بفاعلية في العملية السياسية (Petry, 2007, p. 14).

تصنيف أكثر دقة يقسّم الجمهور إلى مستويات مختلفة من الانخراط السياسي، متجاوزًا الثنائية البسيطة بين الجماهير والنخب. يميز هذا النهج بين ثلاث فئات رئيسية على الأقل:

- **الجمهور العام (أو الجماهيري)**: يشمل جميع السكان البالغين. وهو الفئة المستهدفة في معظم استطلاعات الرأي الوطنية، لكن بشكل عام يتميز بانخفاض مستوى المعرفة والاهتمام بالشأن السياسي.

- **الجمهور المنتبه**: يضم الأفراد المهتمين دومًا بالسياسة والمطلعين على قضاياها. يتابعون الأخبار، ويفهمون القضايا، ويمتلكون مواقف سياسية أكثر استقرارًا واتساقًا (Price, 2007, p. 16).

هؤلاء يشكلون الجمهور الأساسي للنقاش السياسي الجاد.

- **جماهير القضايا (Issue Publics)**: يطور هذا المفهوم فكرة الجمهور المنخرط. ويتألف من أفراد يولون اهتمامًا كبيرًا لمجال سياسي محدد يرتبط مباشرة بمصالحهم الشخصية، بينما يبقون

أقل اطلاعاً على القضايا الأخرى. مثلاً، قد يكون المزارع مطلعاً جداً على سياسات الزراعة، لكنه لا يهتم بالشؤون الخارجية (Freeland, 2015, p. 562). هذا النموذج يشير إلى أن الجمهور يستطيع ممارسة تأثير عقلاني في مجالات محددة من السياسات، حتى إن كانت معرفته السياسية العامة محدودة.

تصنيف آخر مهم يميز بين تعبير الرأي وإمكاناته الكامنة.

- **الرأي الظاهر (Manifest Opinion):** هو الرأي المعبر عنه بشكل صريح، كما في الاستطلاعات أو التصويت أو الرسائل الموجهة إلى الصحف. إنه الرأي العام في صورته المرئية والقابلة للقياس.
- **الرأي الكامن (Latent Opinion):** هو الموقف أو الاعتقاد العميق غير المعبر عنه علناً، لكنه قابل للاستثارة بفعل الأحداث أو التعبئة السياسية أو التغييرات في السياسات. يدرك صانعو القرار هذا النوع جيداً، ويتجنبون إثارة "العملاق النائم" الذي قد ينقلب ضدهم (Petry, 2007, p. 14). يضيف هذا المفهوم بُعداً زمنياً وديناميكياً مهماً لفهم الرأي العام، إذ يذكر بأن قوته الكاملة لا تلتقط دائماً في لحظة واحدة.

تُعد هذه التصنيفات أدوات تحليلية، وغالباً ما تكون الحدود بينها غير واضحة تماماً. ومع ذلك، فإن تفكيك مفهوم "الجمهور" ككيان واحد يسمح بفهم أكثر دقة وواقعية لكيفية انخراط فئات مختلفة من السكان في الحياة السياسية، والطرق المتنوعة التي تجعل آرائهم ذات أثر فعلي.